المحاضرة الثالثة : المنهج التاريخي هيبوليت تين (1828 /1893)

لم يشذ الناقد الفرنسي (هيبوليت تين) عن أستاذه (سانت بوف) في الاعتماد على المنهج التاريخي في دراسة النص الادبي ،كما أنه يلتقي معه في اتجاهه العلمي التجريبي .لقد حرص تين على تحديد سمات منهجه بقوله : " ان المنهج الحديث الذي أسعى الى اتباعه ....يقوم على اعتبار الآثار الفنية على وجه الخصوص أعمالا ومنتجات ينبغي تحديد سماتها والبحث عن اسبابها ".-1-إن الآثار الأدبية عنده تحكمها الأسباب لذلك يميل إلى المنطق السببي .

المعلوم أن (تين) يستند إلى المنهج التاريخي في دراسته للأدب وذلك من خلال وضعه الادب في مجموعة هي نتاج الفنان نفسه ، والجماعة الفنية التي ينتمي إليها ، والمجتمع الذي أنتجها .

ويذهب إلى أن الادب يفهم ويفسر من خلال عدة عناصر هي في حد ذاتها ثلاثية التميز التي تكونها العوامل النفسية والطبيعية للاديب ، وهذه العناصر هي :

1-الجنس /العرق : ويقصد به مجموعة الإستعدادات الفطرية التي تنحدر إلى الفرد من أمته وراثة ، لتمنحه خواصها . ومن ثم فما يميز الاديب العربي يختلف عما يميز الاديب الاوربي

2- البيئة / المكان أو الوسط : وهي المؤثر الثاني في أدب أي أمة ، ويقصد بها الوسط الجغرافي والمكاني الذي نشأ فيه أفراد الأمة ، نشوءا يعدهم ليمارسوا حياة مشتركة في العادات والأخلاق والروح الجماعية هذه البيئة تترك أثرها في الأدب والأديب معا .

3- العصر / الزمان أو اللحظة التاريخية : هو الاحداث السياسية والإجتماعية والعوامل الثقافية والدينية التي يحيا الأديب في ظلها وينتج أدبه .

إن الأدب في حقيقته عند ( تين) ثمرة للقوانين العامة التي تمنحه خواصها وتميزه من سواه-2- ، فهو يفهم ويفسر إذن في ضوء هذه القوانين .لقد ربط (تين) الأدب بالعوامل الثلاثة الرئيسية المؤثرة في تكوينه .وهذه القوانين التي صاغها هي قوانين تتصف بالحتمية والجبرية والإلزام ، ولا يمكن فهم النص الادبي أو تفسيره إلا في ضوئها . ذلك ما يؤكده شوقي ضيف بقوله : "إن هذه القوانين حتمية كقوانين الطبيعة ،قوانين تتحكم في أدباء كل أمة دون

تفريق " .-3-

لقد كان ( تين ) متأثرا بقوانين العلوم الطبيعية وحتميتها الصارمة ، ما يعني أن الاديب ينتج أعماله وآثاره في إطارها ،وتتحكم فيه ، وتوجه مساره الذي لا يملك أن يحيد أو يميل عنه . مع العلم أن القوانين العلمية تختلف عن القوانين الادبية فالقوانين الأولى أي العلمية تتصف بالثبات (إستاتيكية ) في حين تتصف القوانين الأدبية بالتغير فهي ( ديناميكية ) فمع هذا التغير يتطور الادب فيعرف المذاهب والاتجاهات والمدارس خلافا للقوانين العلمية .

1-محمد بن عبد العزيز السويلم ، معالم المنهج التاريخي عند النقاد السعوديين ص215.

2- صالح هويدي ، النقد الادبي الحديث قضاياه ومناهجه ص81 .

3- شوقي ضيف ، البحث الادبي ص86 .

رغم الجهد الذي بذله ( تين ) في تأسيس مشروعه النقدي غير أن نظريته الثلاثية (الجنس ،البيئة، العصر ) لم تسلم من النقد ،وخاصة فيما يتعلق بعنصر الجنس فقد زعم " أن جنسا أرقى من جنس آخر " وهو ما يرفضه بعض الباحثين ، حيث لا يوجد عرق يتسم بالنقاء الخالص لكون البشر يحتكون ببعضهم بعضا ، ويختلطون ويتزاوجون ما ينفي تحقيق الجنس النقي الذي لا تشوبه شائبة .ثم إن قوانينه تلك لاتعترف بالعبقرية والموهبة والتميز الفردي ،

لأن القوانين التي وضعها تنسحب على جميع الادباء في كل ادب وفي كل أمة .

وفضلا عن ذلك فهو لم يميز بين طبيعة العلم وطبيعة الادب الامر الذي جعل ( غوستاف لانسون ) يعارضه حين قال : " ليس هناك ما يجمع بين تحليل العبقرية الشعرية وتحليل السكر إلا الاسم " .كما رفض إسقاط منهج العلو م الضيق على الظاهرة الادبية فقال : " إن محاولتي ( تين ) و ( برونتيير ) في محاكاة عمليات الطبيعة ، واستخدام معادلاتها قد انتهى بهما إلى مسخ التاريخ الادبي وتشويهه " . -1-

1-غوستاف لانسون ، منهج تاريخ الادب ضمن كتاب النقد المنهجي عند العرب ، لمحمد مندور ، ص406.